

(١)

المسئولية

دينية ووطنية ومجتمعية وإنسانية

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {...وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ
وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...} ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلِّم وباركْ عليه وعلى آله
وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فقد حدد الحق سبحانه وتعالى للإنسان مهمة عظيمة بجانب مهمة العبادة ،
وهي مهمة إعمار هذا الكون ، قال تعالى : {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ
فِيهَا} أي: طلب منكم عمارتها وإصلاحها ، والنظر فيما أودع فيها من خيرات وما قدر
فيها من أقوات.

وإن الإنسان مدني بطبعه لا يستطيع أن يعيش وحده منقطعاً في صحراء ، أو
منعزلاً في كهف ، بل يعيش مع غيره في مجتمع متماسك البنیان ، يتأثر به ويؤثر فيه ،
قال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} ، فإقامة الحياة وإنشاء الحضارة
والعمران يتطلب التعايش والتعاون بين الناس ؛ لذا كان لابد من نشر قيم المسئولية
المجتمعية التي يتحقق بها مبدأ إعمار الكون الذي دعا إليه الإسلام .

فالمسئولية مبدأ إسلامي أصيل ، يتربى عليه المؤمن من خلال معرفته بدينه
حق المعرفة ، فيدرك الإنسان ماله من حقوق وما عليه من واجبات ، فيلتزم بالوفاء
بها، فيصبح إيجابياً في مجتمعه نافعاً لوطنه ، لا يعتدي على حقوق الآخرين ، ولا
يمنعه أحد شيئاً من حقه .

(٢)

وما من لحظة من لحظات حياة الإنسان إلا وتتجسد فيها قيمة المسؤولية بكل صورها ، سواء أكانت مسؤولية فردية أم مجتمعية ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) ، فبين الحديث الشريف أن المسؤولية في الإسلام تمتاز بالشمولية ، فتعم كل أفراد المجتمع .

والمسئولية في الإسلام نوعان ، مسؤولية فردية معني بها الأفراد ، وهناك مسؤولية مجتمعية وإنسانية معني بها المجتمع كله ، فالمسؤولية الفردية تعني: أن يكون الإنسان مسؤولاً عن نفسه وجوارحه وبدنه ، وعقله ، وعلمه وعمله وأسرته، وعباداته ومعاملاته ومسئوليته ، فإن أحسن ووفى بحقها أمام الله (عز وجل) وأمام نفسه ومجتمعه تحقق له الثواب ، ونال الأجر والعطاء ، وإن أساء وفرط في هذه المسؤولية فقد باء بنفسه إلى الخسران المبين ، وإلى هذه المسؤولية أشار (صلى الله عليه وسلم) بقوله: (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عَمَلِهِ فِيمَا أْفَنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ).

ومن لوازم المسؤولية الفردية أن يكون الإنسان عفيف اللسان ، طاهر اليد ، مأمون الجانب مع كل البشر ؛ قال (صلى الله عليه وسلم) : (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ).

أما المسؤولية المجتمعية والإنسانية فتعني: قيام الجميع أفراداً ومؤسسات بواجباتهم تجاه أوطانهم ومجتمعاتهم ، والمحافظة على ثروات المجتمع ، والعمل على تنميتها ، ونشر قيم الأمن والأمان والسلامة والطمأنينة والمواطنة القائمة على

(٣)

العدل والإنصاف والتسامح الديني ، ونشر ثقافة التعايش السلمي ، وغير ذلك بما يحقق نهضة الأمة والمجتمع والبشرية كلها.

وتقوم المسؤولية المجتمعية على أساس فروض الكفايات التي إن قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين ، وإن لم يقم بها أحد أثم الجميع ؛ لأن فرض الكفاية لا يتعلق بشخص بعينه ، بل يتعلق بجميع أفراد المجتمع ، فإطعام الجائع ، وكساء العاري ، ومداوة المريض ، وإغاثة الملهوف ، وتعليم الجاهل كل ذلك يدخل في فروض الكفايات ، يقول سبحانه : { وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } .

والمسؤولية المجتمعية لها الدور الأكبر في تحقيق التوازن المطلوب في المجتمع والمسؤولية الإنسانية هي السبيل الأسمى لتقوية الروابط والعلاقات الإنسانية بين البشر ، ومن صورها :

تعليم الجاهل ، ورفع الأمية بكل صورها : التعليمية ، والثقافية ، والدينية ، فكل صاحب قلم وفكر ، وكل عالم ومثقف ، وكل صاحب منبر دعوي وإعلامي مسئول عن رفع الجهل ، وحماية الأمن الفكري لأفراد المجتمع ، فالجميع في سفينة واحدة ، ولكي تصل إلى بر الأمان لابد من تكاتف الجميع وإلا هلكوا جميعاً .

ومن صورها - أيضاً - : تحقيق كفاية الوطن في طعامه وشرابه وكسائه ودوائه ، وتوفير سلاحه وعتاده ، وتحقيق القوة في جميع المجالات العلمية ، والفكرية ، والاقتصادية ، والإنتاجية ، يقول تعالى : { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } ، ولم يحدد الله تعالى نوع هذه القوة ، فهي شاملة لكل قوة تصلح الأمة ، سواء كانت قوة روحية ، أم علمية ، أم جسدية ، أم اقتصادية ، أم عسكرية ، أم غير ذلك .

(٤)

ومن صور المسؤولية المجتمعية والإنسانية : قضاء حوائج المحتاجين ، ورعاية
اليتامى والمساكين ، وعلاج المرضى ، وبذل الجهد لإغاثة الملهوفين والمنكوبين ،
وإزالة الكرب عن المكروبين ، حتى لا يجوع فقير ، ولا يضيع يتيم ، ولا يحتاج
مسكين .

ومن صورها : تقويم السلوك المعوج ، انطلاقاً من قوله تعالى : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ
أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ مُسَوِّمُونَ بِاللَّهِ} ، وامثالاً
للتوجيه النبوي في قوله (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ،
فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ) ، فالتغيير باليد
يكون للسلطان ، وباللسان للعلماء ، وبالقلب لعامة الناس ؛ لأن المجرم إذا استشعر أن
المجتمع كله سيكون لافظاً له ، رافضاً لسلوكه ، متجنباً التعامل معه ، فإنه سيراجع
نفسه ألف مرة ومرة قبل أن يقدم على عمل إجرامي ، وإما إذا استشعر عكس ذلك
فإنه سيتمادى في إجرامه ، سواء أكان ذلك على مستوى الأفراد ، أم على مستوى
الدول .

ومن صور المسؤولية المجتمعية والإنسانية : قيام التاجر بواجبه تجاه وطنه ، فلا
يعش ولا يحتكر ، ولا يفعل ما من شأنه استغلال حاجة الناس ، ومن النماذج التي
ينبغي أن يقتدى بها في المشاركة المجتمعية وتحمل المسؤولية تجاه المجتمع ، ما
فعله سيدنا عثمان بن عفان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، حيث اشترى بِرُّ رُومَةَ لحاجة المسلمين
إليه ، ثم أوقفه عليهم ؛ ولذا أكد النبي (صلى الله عليه وسلم) أن التاجر الصدوق مع
النبيين والصديقين والشهداء ، وكذلك قيام كل من العامل ، والصانع ، والطبيب
والمهندس ، والمعلم ، ورجل الأعمال بواجبهم تجاه وطنهم ، وكذلك قيام الأغنياء

(٥)

بواجبهم تجاه الفقراء والمحتاجين ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبَعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ).

إن قيام الإنسان بواجبات مسؤوليته تجاه مجتمعه عبادة يتوجه بها إلى الله تعالى قبل كل شيء ، فهي صورة من صور الأمانة التي أمر بها الشرع الشريف ، وحذر من خطر خيانتها أو الاخلال بها ، حتى تسوده روح الألفة والمودة ، والرحمة والتعاون ، والتكافل والتكافل وغيرها من القيم الخلقية والإنسانية التي تحقق الخير للفرد والمجتمع ، وهذا من صفات المجتمع المسلم ، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) وَشَبَكَ أَصَابِعَهُ.

والإخلال بالمسؤولية يُزعزعُ القيم الأخلاقية، وينشر السلبية ، مما يُؤدِّي إلى حالاتٍ من الاحتقان والجهد والتوتر والإحباط واليأس من الإصلاح ، ويضعف الولاء الصادق للأمة وللدولة ، ويُهددُ الترابط الأخلاقي ، وقيم المجتمع الحميدة المستقرة، يقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ، حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ).

ولنعلم أنه ما ضاعت أمة ولا هلك مجتمع إلا حينما تغافل الناس وتركوا مبدأ القيام بالمسؤوليات المجتمعية ، وتعالَت فيهم نزعات النقيصة والأنانية ، وقد قالوا ما استحق أن يولد من عاش لنفسه ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (خير الناس أنفعهم للناس).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

(٦)

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلاماً على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام :

من أهم جوانب المسؤولية مسؤليتنا الوطنية في حفظ الأمن واستقرار الوطن كل في موقعه وميدانه ، والعمل على تقدمه ورخائه وتحقيق كفايته في جميع جوانب الحياة ، حفاظاً على كيان الدولة وبنائها قويا صلماً متماسكاً ، والعمل على ردِّ كيد أعدائها المتربصين بها في نحورهم .

وأول واجباتنا في ذلك هو إجهاض مخططات الأعداء الذين يعملون على إفشال دولتنا ، أو إضعافها ، أو إسقاطها ، أو تمزيق دولنا إلى كيانات لا تنفع ولا تضر ، فإضعاف دولنا وإسقاطها يصب في مصلحة أعدائنا ، ولا يخدم قضيتنا ، ولا قضايا أمتنا . أما العمل على قوة وطننا ودولنا فإنه يخدم جميع قضايانا وقضايا أمتنا العادلة ، ومن أهمها قضية الأقصى ، فإن لكل أمة مقدسات تعزُّبها ، وتلتف حولها ، وتدافع عنها بكل غالٍ ونفيس ، والمسجد الأقصى أحد أهم مقدسات الأمة وله مكانته ومنزلته العظيمة في الإسلام ، فهو ثاني المساجد التي أسست على وجه الأرض ، فعن أبي ذرٍّ (رضي الله عنه) قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ؟ قَالَ: (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ)، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: (الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى)، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: (أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَأَيُّنَا أَدْرَكَتَكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ فَهُوَ مَسْجِدٌ). وهو ثالث الحرمين الشريفين ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ (صلى الله عليه وسلم) ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى) ، وهو أرض المحشر والمنشر ، فعن ميمونة مولاة النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) قالت: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

(٧)

أَفْتِنَا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ! قَالَ: (أَرْضُ الْمُحَشَّرِ وَالْمَنْشَرِ ، انْتُوهُ فَصَلُّوا فِيهِ ، فَإِنَّ صَلَاةً فِيهِ كَأَلْفِ صَلَاةٍ فِي غَيْرِهِ) قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَحَمَّلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: (فَتُهْدِي لَهُ زَيْتًا يُسْرَجُ فِيهِ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ كَمَنْ أَتَاهُ) ، وهو منتهى إسراء سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وبداية معراجه إلى المأد الأعلى ، وقد شرف الله البقعة المحيطة به وحفها بالبركة ، فقال سبحانه: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} .
وفي ذلك توجيه للمسلمين بأن يعرفوا منزلته ، ويستشعروا مسؤوليتهم نحوه ، ومن ثم تجب حمايته ، وعدم التفريط فيه ، فهو أمانة في أعناق المسلمين جميعاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولن تستطيع الأمة أن تحافظ على مقدساتها إلا بالاعتماد على الله (عز وجل) وتقواه أولاً ، ثم بوحدة صفها ، وبامتلاك أسباب القوة بالعلم والعمل .
ونؤكد أنه لا أمان بلا عدل ، وأن عاقبة الظلم والاعتداء على حقوق الآخرين وخيمة ، سواء على مستوى الأفراد أم على مستوى الأمم ، كما نؤكد على أهمية التحرك على المستوى الدولي؛ لدعم الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني؛ ولحماية جميع دور العبادة وفي مقدمتها المسجد الأقصى حتى لا تتسع دائرة الحروب الدينية ، ويزداد العالم صراعاً فوق صراعاته .
ثم إن كلا منا مسئول أمام الله (عز وجل) عما قدم لدينه ووطنه ، وعمارة الكون ، وصالح الإنسانية .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى ، وأن يؤمننا في أوطاننا ويحفظ بلادنا من كل سوء ، وأن يحفظ أقداننا ، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً .